الكاتب

إشكالية التسامح

عاطف علبي

مجلة التسامح ، العدد الثامن عشر (ربيع 1428 هـ /2007 م)

نص المقالة

إذا ما أخذنا بالمنطق التاريخي وكذلك الشكلي وأيضاً الجدلي وحتى البداهة والحس السليم، يتضح لنا ان التسامح تأتى عن اللا تسامح أو التعصب. لذلك لابد قبل تناول الإشكالية هنا من تحديد اللاتسامح أو التعصب ومن ثم التسامح.

بنأ عليه ما هو اللاتسامح أو التعصب؟ ولو بشكل موجز؛ ثم ما هو التسامح؟ وبشكل موجز أيضا؛ وذلك من أجل التركيز على الإشكالية في المو ضوع فيما بعد.

ما هو اللاتسامح أو التعصب؟

إن كلمة »اللاتسامح« تتضمن التوق الوحشي الذي يدفع إلى الكره وملاحقة من هم على خطأ أو على ضلال. وهنا يغترض التفريق بين اللاتسامح الديني واللاتسامح المدني. فاللاتسامح الديني يقوم على رؤية الخطاء في كل ديانة غير التي نعتنق، والجهر بذلك من عل، دون التوقف أمام الإرهاب واحترام الإنسان ولدرجة التضحية بالذات. أما اللاتسامح المدني فيقوم على المقاطعة والملاحقة بكل الوسائل العنفية لمن لهم رؤيا وتفكير عن الله وعبادته يختلف عما لدينا1. نحن هنا تجاه اللاتسامح الديني. ويبدو لنا أن هذا التفريق بين اللاتسامح الديني واللاتسامح المدني ماهو إلا شكل من أشكال التعبير عن اللاتسامح النظري واللاتسامح التطبيقي العملي. ومن المعروف ان بين النظرية والتطبيق توجد الهوةالتي تؤدي إلى الممارسة المتناقضة مع النظري في كثير من الأحيان إن لم يكن معظمها، فكيف الأمر بالنسبة للتطابق هنا؟ لذلك بالإمكان القول إن اللاتسامح المدني هو مرتبط في ذهن من يأخذ به باللاتسامح الديني، على غرار

ما يرى بوسيه- Bossuet بالنسبة للتسامح.

هذا التعريف، المقتصر على التعصب أواللاتسامح الديني، مستوحى، على مايبدو لنا، من الظروف التي امتزج فيها الدين بالدولة، وبالحرف الواحدعلى لسان روبير جولي Robert Joly : »لأن المسيحية كانت في السلطة وامتزجت في الدولة أصبحت هذه الأخيرة توتوليتارية ولاحقت واضطهدت كل من شذ عن العقيدة الرسمية«2 بمعنى آخر إن الدولة كانت غير متسامحة أو لامتسامحة وحتى متعصبة.

هذا كما يبدو لنا أن روبير جولي في توطئته لكتاب المؤتمر الذي انعقد في مونس- Mons- بلجيكا في العام 1982م، قد اعتمد مفاهيم المحبة والإحسان والرحمة والرأفة والبر في الدين المسيحي، بحيث يصبح: »أول واجب لإحسان المسيحي هو ان يجنب مثيله الإنسان جهنم، حتى بالرغم عنه. ولذلك إذا لم تعط محاولة الإقناع النتيجة المرجوة، يصبح العنف أخلاقيا أمرا ضروريا«3. وبالتلي فاللاتسامح أو التعصب هو النتيجة الحتمية للإحسان وحتى المحبة. وحتى فيما بعد يغدو التبشير بالتسامح بمثابة النتيجة الحتمية للاتسامح. فالواقع أن العبارتين على علاقة جدلية فيما بينهما وسوف يتضح ذلك فيما بعد.

ومن أبرز من حارب التعصب أو اللاتسامح ودافع عن التسامح في القرنين السابع عشر والثامن عشر هو الفيلسوف الفرنسي الشهير فولتير- Voltaire (1694-1778م) الذي نعرض أهم جهوده في مقارعة التعصب أو اللاتسامح (كتمهيد لتعريفه له)، لاسيما الديني منه، حيث حمل على الخرافات وهاجم الكنيسة الكاثوليكية حينما أضحى التعصب والإضطهاد فضيحة في بلاده (فضيحة تعذيب جان كالاس- Jean Callas في كتابه »دراسة حول التسامح Tolérance Traité sur la«). وذلك بأسلوب السخرية المشهور به وكذلك الهجاء. وقد كتب بهذا الصدد كتابا بعنوان »مقبرة التعصب« في عام 1736م ونشره في عام 1767م. هذا ويقول فولتير في القاموس الفلسفي: »إن العتصب هوس ديني فظيع، مرض

معد يصيب العقل كالجدري، وهؤلأ المتعصبون قضاة ذوو أعصاب باردة يحكمون بإعدام الأبرياء، الذين لم يفكروا بنفس طريقتهم. ولا يوجد علاج لهذا الداء المعدي إلا الروح الفلسفية، التي بانتشارها شيئاً فشيأ تتهذب أخلاق البشر وتتحاشى التطرف، وليس الدين وليس القوانين بكافيين لمكافحة هذا الطاعون«4.

ثم يضيف: »إن الروح الفلسفية تضفي على النفس السكينة. أما التعصب فعلى العكس من ذلك ضد السكينة. والتسامح هو قوام الإنسانية لأننا كلنا خطاؤون وهذا أول قانون للطبيعة.... ألشقاق هو أكبر شر يصيب الجنس البشري والتسامح دواؤه«5. نلاحظ هنا كما سلف الإرتباط المباشر بين الداء – التعصب أو اللاتسامح والدواء أو العلاج – التساهل أو التسامح.

هذا وقد صاغ الفيلسوف الألماني لسنغ –Lessing (1729-1781م) في مسرحيته »ناتان الحكيم« (1779م) بشكل أدبي فكرة التسامح بين الأديان، وذلك عن طريق العمل الصالح وليس بالتعصب الأحمق. وصار هذا العمل مثلا يضرب بالتسامح6.

ما هو التسامح؟

إن كلمة تسامح هي باللاتينية tolerentia وبالفرنسية tolerance و بالإنكليزية toleration، وهي تعني لغويا التساهل وعند علماء اللاهوت الصفح عن مخالفة المرء لتعاليم الدين7.

ومن معاني التساهل (وهو التسامح بتعبيرنا): »أنه سلوك شخص يتحمل دون اعتراض أي هجوم على حقوقه في الوقت الذي يمكنه فيه تجنب هذه الإساءة. ويعني استعداد المرء لأن يترك للآخر حرية التعبير عن رأيه ولو مخالفا ولو خطأً«8.

أما أديب إسحاق فيرى فيما نسميه التساهل وهو التسامح: »رضى المرء برأيه اعتقاد الصحة فيه واحترامه لرأي الغير كأننا ما كان رجوعا إلى معاملة الناس بما يريد أن يعاملوه. فهو على يقينه الصواب لما يراه لايقطع بلزوم الخطأ في رأي سواه، وعلى رغبته في تطرق رأيه للأذهان، لايمنع الناس من إظهار ما

يعتقدون«9.
فهذا التعريف لأديب إسحاق أكثر تفصيلا من تعريف حسن حنفي الآنف الذكر، وبالتالي فالتعريفان متممان أحدهما للأخر.
وبهذه المناسبة فالإمام الشافعي المشهور يقول : »رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب«. وهذا منتهى التسامح ورفض مطلق للتعصب. و معلوم أن الشافعي عاش في القرن الثاني للهجرة، أي قبل 1300 سنة. وبذلك يتجلى االتسامح في الفقه الإسلامي قبل الأخذ به دينياً ومدنياً في القرن السادس عشر على أثر الحروب الدينية المسيحية.
أما قاموس لاروس الموسوعي فيرى أن التسامح هو موقف من يقبل لدى الآخرين وجود طرق تفكير وطرق حياة مختلفة عما لديه هو. وبالتالي فهو موقف من يتحمل نتائج العوامل الخارجية عليه، لاسيما العدائي والمضر به منها. وبذلك يصبح مبدأ التسامح مبدأ توافقيا ويكون الغرض منه ليس الأخذ بالممنوعات ولكن الوصول إلى التوافقات. هذا وفي الدين التسامح هو احترام حرية التعبير والانفتاح الفكري تجاه الذين يمارسون ديانات وعقائد مختلفة عما نمارس10.
وهنا بالنسبة لما سلف من تعريفات فالجدبد هو فكرة التوافق.
في هذا المجال لابد من الأخذ بهذه الكلمة – التسامح – في الإطار الفلسفي وكذلك التاريخي –الجغرافي للإجابة على متى ظهر التسامح؟ ولماذا وأين وكيف؟ حيث تبرز تعريفات تتماشى والتطور الذي انتاب الدين والفلسفة على مر العصور نتيجة التحولات الحضارية المختلفة.
فهناك تعريف للتسامح في التاريخ أقدم من تعريف لاروس الذي عرضنا (مقرونا بتعريفي حسن حنفي وأديب إسحاق وأيضا الإمام الشافعي) يتماشى مع ظهور الكلمة في القرن السادس عشر إثر الحروب الدينية حتى الأخذ بها في القرن التاسع عشر مع الفكر الحر وبالمعنى العاصر (التسامح مع الزواج الحر والبورنوغرافيا والمخدرات الخ). ذلك إن الدعوة إلى التسامح تأتت عن ازمة الإصلاح وفي غمرة الحروب الدينية. وبالتالي »فالتمسك بالتسامح هو منذ

القرن السادس عشر على علاقة عكسية بالتمسك بالمعتقدات بالموقف الديني«11.
هذا التعريف الذي بدأ دينيا وانتهى، إن جاز التعبير، مدنيا يتلخص بالنسبة للدين »في كون الدولة هي صاحبة السلطة في المجال الديني، إنما النظام العام يفيد من السماح لكل المعتقدات بالتعبير الحر عن ذاتها«12.
بناء عليه فالمناداة بالتسامح هي لمصلحة الدولة والمجتمع المدني، وبالتالي نحن هنا تجاه ما يمكن تسميته بالتسامح السياسي.
هذا بالإضافة إلى ما ورد في هذا المجال للأخذ بالدين مرتبطا بالدولة وحيث ليس النفع للنظام العام المنبثق عن الدولة من ذلك، بل هو الواجب على الدولة القيام به، نتيجة لما ورد لدى حسن حنفي: »إن سلطان الحكومة لايستطيع أن يؤثر في معتقدات الإنسان الدينية، وإن الرضوخ للحكومة في هذا الأمر لاينتج إلا اعترافات يحدوها الرياء والكذب. إنه لينبغي إفساح المجال لكل مذهب وإن من واجب الحكومة المدنية أن تحقق سعادة االأفراد جميعا، سوأ من كانت معتقداته صحيحة ومن كانت معتقداته سقيمة. إن الله نفسه ليبين لنا رغبته في أن يعبده الناس بوسائل شتى وإننا نستطيع الوصول إليه من ألف سبيل13 (منها عبادة الله في الطبيعة، في الحديقة، كما لدى طاغور في مجموعته الشعرية الجنينة – ع.ع.)، وفي ذلك توسع بالنسبة لما ورد لدى »لالند«، مع ربط للمدني بالديني معمق في جذوره الدينية والمدنية. وذلك باعتبار أن جهودا عديدة قد بذلت من أجل إرساء مبدأ التسامح، وذلك منذ صدور مراسيم التسامح الرومانية للمسيحيين سنة 311-313م، ثم التسامح بين المسيحيين وفرقهم المختلفة. ومن الصدف الغريبة أن يكون رجل غير مسيحي هو الذي علم الطوائف المسيحية كيف تتسامح بعضها مع بعض. إن ذلك الرجل هو تمستيوس14 الذي وجه خطابا إلى الإمبراطور »فالنس« حضه فيه على إلغاء المراسيم التي أصدرها لاضطهاد مخالفيه من المسيحيين15. وقد شرح له ما أوردنا من تعريف يدل على واجب الحكومة في الموضوع مبينا تخطي الرياء والكذب وطارحا شفافية دينية بالنسبة لله.

يبدو لنا أن هذا يعود إلى المستوى الرفيع الذي وصلت إليه الوثنية وحضارتها وإلى الحس المدني لدى تمستيوس و رؤياه السياسية وقبوله بالدولة الديمقراطية. وذلك لأنه أيام كونستنتان16، الذي اعتنق المسيحية سيفرض الدين المسيحي ويعود عدم التسامح تجاه كل من ليس بمسيحي. ذلك أن كونستنتان كان قد رأى الضعف الذي دب في الإمبراطرية ورأى تفاني هؤلأ المسيحيين في معتقدهم، رغم رميهم إلى السباع، فرأى في توحيد الإمبراطورية تحت راية الدين المسيحي وسيلة لتماسكها وشد لحمتها. فكما نرى فالتسامح وعدمه رهن بالظروف التاريخية وليس هو مجرد مبدأ أخلاقي فقط.

بعد ذلك نعود لتعريف »لالند« حيث »التسامح هو موقف فكري، أو قاعدة سلوك لشخص ما، تتلخص في أن يترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه، في الوقت الذي لايوافق عليها ولايشارك فيها. لذلك فحرية الفكر هي واجب التسامح«17.

هذا بالإضافة للتحديد العصري للتسامح القائل: »بعدم التخلي عن القناعات الذاتية، أو الامتناع عن الجهر بها، والدفاع عنها، أو نشرها، إنما الإمتناع في ذلك عن كل الوسائل العنيفة والتعسفية والمضرة وطرح الآراء دون العمل على فرضها«18. هذا بالإضافة أحيانا إلى »الإحترام اللطيف لمعتقدات الآخرين، كونها تعتبر إغنأ للحقيقة الكاملة«19.

فكما نرى فهذا التعريف الديني والمدني والعلماني، إلى حد ما، والأخلاقي للالند، والذي عرضنا، يعتبر أكثرتفصيلا »أفقيا وعاموديا«، إن جاز التعبير، بالنسبة للتعريف السابق للقاموس الموسوعي لاروس (وغيره) الأكثر تكثيفا في مرماه. كما أنه يذكرنا بفكرة بوسيه Bossuet20 في كون التسامح المدني مرتبط بذهن من يتمسك به بالتسامح الديني، وحيث نتذكر أيضا كتاب »ف. بويسون« F. Buisson المرتكز الديني للأخلاق العلمانية (Fichbachem 1917)21.

ونضيف إلى ذلك أن التسامح هو من أهم القيم التي يتطلبها التاريخ الحديث. ففي عالم يتجه إلى الوحدة، فإن تلاقي المتنوعات يمكن أن يكون قتالا إذا لم

تتآلف بغرض الإغتناء المتبادل للخلافات فيما بينها. فالتسامح هو بالتالي، وبمنتهى الإيجاز، الاعتراف بالآخر والتعايش معه والتقدير له والقبول به ومحاولة التبادل الخلاق معه22.

وهذا يذكرنا بطرح حوار الثقافات الذي تنادي به الفرنكوفونية وبنداء البابا يوحنا بولس الثاني أيضا والقائل بحوار الثقافات من أجل حضارة السلام. كما أن التسامح متجذر في التاريخ بعمق تجذره في ضمير الإنسانية. وقد عرف الانتكاسات والتراجعات (من جراء اللاتسامح) التي لم تعيقه عن شق طريقه عبر العصور. إنما في إطارالنسبية، حسبما نرى، وذلك لأن جدلية العلاقة بين التسامح واللاتسامح تاريخيا تدعو إلى الإنطلاق من اللاتسامح للوصول إلى التسامح. وكذلك من التسامح نصل إلى نسبية الأخذ به من جراء التوق المزدوج للبشرية إلى الأمان والحرية، الأمر الذي يعيدنا إلى اللاتسامح ولو النسبي، وربما، حسب الظروف التاريخية، إلى اللاتسامح. ولنتذكر هنا قول »ديدرو« بالنسبة لذلك »وميرابو« أيضا: »المتسامح طالما هو ضعيف من المحتمل جدا أن يصبح غير متسامح إذا ما تزايدت قوته« (ميرابو)23، »التسامح هو نظام المقهور الذي يتركه عندما يغدو قويا، لدرجة أن يصبح لامتسامحا« (ديدرو)24.

فكل شيء في الوجود هو خاضع لقانون النسبية، سواء أكان ذلك في الطبيعة أم في المجتمع، وسواء أكان الأمر يتعلق بالتركيب التحتي أو التركيب الفوقي للمجتمع.

إشكالية التسامح

الواقع أن التسامح، أياً كان، دينيا أو مدنيا أو علمانيا، هو ضروري، بل حتى واجب لابد من الأخذ به، في الظروف التي نعيش، سوأ أكان ذلك على المستوى المحلي الوطني أو الإقليمي أو القاري وحتى العالمي، لاسيما ونحن في إطار عملية العولمة، وحتى على عتبتها في العالم الثالث.

أي كان المعنى الذي يتلبس به معنى التسامح، لابد من الأخذ به في عالم اليوم – عالم العولمة، كيما تسوده العدالة وحتى الإيثار إذا أمكن، بمعنى أن يصبح ليس مجرد مبدء فلسفي (رغم نسبية هذا القول) ثم حقوقي، بل حتى، وهو بنظرنا

الأهم، مبدء أخلاقي (فضيلة ولو صغيرة كما سوف نرى) يتحلى به البشرفي كل مكان وزمان، إن جاز التعبير، فيما بينهم ومع من لايتفقون معهم في أي موضوع كان. فالأرض كبيرة ولامجال، إذا ما سادت الأخلاق (والفضائل من تسامح ومحبة واحترام الخ) أن لايتسامح البشر عليها، لأسباب، غالبا ما تكون إقتصادية، وامامهم الكواكب السابحة في الفضاء، إذا لم تعد تكفيهم الأرض، بالرغم من عدم صحة ذلك علميا.

نقول ذلك بالإضافة إلى كون كنه الإنسان هو الحرية. والتسامح والحرية توأمان، يميزانه عن الحيوان. فنظرية الحرية هي نظرية التسامح ومبدأ التسامح هو مبدأ الحرية.

هذا في حين أن الموسوعة الفلسفية لبول إدوردز25 ترى ضرورة تمييز التسامح عن الحرية، وذلك لافتراض وجود شيء غير مرغوب فيه ومزعج وحتى ضار في التسامح. هذا في حين أن نظرية الحرية لاتحتمل النقد، كما يقولون، وحتى النظرة الأخلاقية وغير ذلك. فالمتسامح يدين ومع ذلك يتسامح. وليس في ذلك خلاف، ماخلا التمييز المشار إليه في التعريفات السابقة (لاروس، لالند وغيرهما). إنما الجديد هنا، هو الإشارة إلى التمييزبين التسامح واللامبالاة. هذه اللامبالاة التي تعتبر من الأمور السيئة، لاسيما بالنسبة للمتدينين المؤمنين.

كما تنبغي الإشارة هنا إلى أن موضوع التسامح مقترنا بالحرية في إطار الديمقراطية (الضامن للحرية والتسامح) يفترض أننا تجاه دول ليبرالية وليس دول توتوليتارية. هذه الدول الديمقراطية الليبرالية أدى بها الحفاظ على نظامها السياسي إلى وضع حدود للتسامح والحرية تجاه الحركات الفاشية في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية وغيرها.

وهنا بإمكاننا، عبر الدولة، أن نمنع شخصا ما من التعبير عما يعتقد به، لكن ليس بمقدورنا أن نمنعه من التفكير به. إذ عندها يجب إلغاء الفكر بحد ذاته وإضعاف الدولة بذلك...... فليس هناك من ذكاء دون حرية المحاكمة وليس هناك مجتمع مزدهر من دون العقل. لذلك فعلى الدولة التوتوليتارية القبول بالغباء أو بالتفكك وبالفقر أو بالنقد. وتاريخ بلدان أوروبا الشرقية وما انتهت

إليه من خيبة يشهد على ذلك. فاللاتسامح يجعل الإنسان غبيا، كما أن الغباء يجعله لامتسامحا26

كذلك، في إطار المقارنة، ولو استطرادا، بين الدول اليمقراطية الليبرالية والدول التوتوليتارية، نقول باختصار أن لاتسامح الدولة (وبالتالي ما يسمى بالتوتوليتارية) ليس بمقدوره في النهاية إلا أن يضعفها، بإضعاف التآذرالإجتماعي وضمير كل إنسان. هذا في حين أن النظام المتسامح هو على العكس من ذلك، إذ أن قوة الدولة فيه تؤدي إلى حرية افرادها، كما أن حريتهم هي قوة للدولة. وينتهي سبينوزا – Spinoza إلى القول: »إن ما يتطلبه، قبل كل شيء، أمان الدولة هو أن يخضع كل إنسان في تصرفه إلى قوانين الحاكم (والذي هو بالتالي الشعب في الديمقراطبة، مع نسبية ذلك حسب رأينا– ع.ع.)، لكن ماعدا ذلك ليمنح كل إنسان حق التفكير كما يشاء ويقول مايشاء« 27 (دون أن يتعدى ذلك إلى النشاط العنفي حسب رأينا– ع.ع.). وذلك ألا يشكل العلمنة؟ وهل العلمنة سوى التسامح القائم مؤسساتيا28. كذلك من يتحدث عن التسامح لابد له من أن يتحدث عن الحرية وأيضا الإحترام، الذي يفضل الأخذ به بدلا من التسامح بعض الفلاسفة والمفكرين (وقد أشار إلى ذلك قاموس لالند الفلسفي والموسوعة الفلسفية لإدوردز وآخرين كما مر معنا). لكن في كل ذلك لابد، حسب بعض المفكرين والمنظرين، لاسيما في الفكر السياسي، من الأخذ بعين الإعتبار ضرورة وضع الحدود للحرية كي لاتصبح فوضى، في الواقع العملي لحفظ النظام المدني العام وحتى السياسي؛ وكذلك الأمر بالنسبة للتسامح كي لايجنح نحو الإستبداد؛ وهنا الغاية تكون الحفاظ على النظام القائم. وفي ذلك تكمن الإشكالية – (Dilema. فالأخذ بالحقيقة النظرية مقرونة بالواقعية العملية، كأهم شيء، يمكن أن يتأتى عنه جو عدم تسامح. فالإشكالية تكمن في أنه إذا ما تمسكنا بالحرية والتسامح بشكل مبدئي نضطر باسم الديمقراطية إلى قبول تصرفات غير مفيدة، وحتى أحيانا مضرة بالمجتمع (فاشية، نازية، صهيونية بشكل خاص وغيرها) وإلا نصبح غير ديمقراطيين، وبالتالي ننقلب ضد الحرية والتسامح. لذلك ففي هذا الميدان –

التسامح، كما في غيره، يعود إلى الظهور التناقض الكبير بين توق البشرية المزدوج إلى الأمان وإلى الحرية.

وهذا ما أشار إليه كل من كارل بوبر Karl Popper وفلادمير جانكليفيتش -Vladimir JanKélévitch حيث قال هذا الأخير إن التسامح إذا ما دفع به إلى آخر الحدود »ينتهي بنفي ذاته«29، على اعتبار أنه يترك الأيدي طليقة لمن يريد أن يقضي عليه. وبذلك لايعود من قيمة للتسامح إلا ضمن الحدود (وفي ذلك تاييد لما أسلفنا من نسبية كل المفاهيم والقيم سواء أكان الأمر يتعلق بالطبيعة أو بالمجتمع، أم بالتركيب التحتي أو الفوقي للمجتمع– ع.ع.) التي هي حدود بقائه والحفاظ على شروط إمكانيته.

وهذا ما يسميه كارل بوبر إشكالية التسامح، حيث يقول بالحرف الواحد : »إذا ما أخذنا بالتسامح المطلق حتى تجاه غير المتسامحين، ولم ندافع عن المجتمع المتسامح ضد هجماتهم، يفنى المتسامحون ومعهم التسامح أيضا«30.

وبالتالي فعلى عكس المحبة والكرم اللذان ليس لهما من حدود ضمنية أو نهاية سوى ذواتنا، فإن التسامح هو محكوم في جوهره بالحدود: فالتسامح اللانهائي يصبح نهاية التسامح! ومع ذلك ليس من حرية لأعداء الحرية! ليس الأمر بهذه السهولة31.

أخيرا هل نتسامح مع من لايتسامح؟ وكما أسلفنا. ألا يشكل هذالأمر إشكالية الإشكالات؟ مع أنه يشكل مرتكز التسامح. كذلك لانتسامح مع القاتل والسارق والغشاش.... فكيف نتسامح، باسم حرية القول وإبداء الرأي، مع من يحمل كلامه وقوله السم في الدسم. ألايمكن لهذا الإنسان، عبر ما يكتب ويقول، غسل الأدمغة، وهو أخطر ما يمكن أن يكون، إذ يسلب الإنسان الحرية في التقرير ويجعله تابعا فاقد الفكر والرؤيا، منساقا بشكل بهيمي، عبر تاجيج عواطفه وغرائزه.

الواقع أن موضوع ضرورة وضع الحدود للحرية والتسامح لم يتم تناوله بالبحث الكافي من قبل في الماضي، ولو انه أخذ به بشكل عملي من قبل كل من لوك وفولتير وغيرهما حفاظا على النظام السياسي القائم. ويبدو لنا أن ذلك يعود

آنذاك لطغيان الأخذ بمبدأ ضرورة التسامح كونه التطبيق العملي لمبدأ الحرية إبان الإصلاح الديني وانتشار التسامح في عصر التنوير.

كما لابد من الإشارة إلى أن وضع الحدود للحرية والتسامح يعود إلى كون الأخذ بالتسامح وعالميته يؤدي أحيانا إلى مواقف لاأخلاقية، تتمثل بشكل خاص بالعنصرية والفاشية والنازية.

كما أن التسامح ليس له من قيمة ألا عندما يكون علينا وليس على الآخرين، بمعنى أننا عندما نتسامح نتنازل عن جزء من مقدرتنا، قوتنا، غضبنا....نتسامح مع دلع الأطفال أو مقترحات العدو. هذا وليس هناك من تسامح عندما لايكون لدينا شيئا نخسره، فكيف بالأحرى عندما يكون الأمر ربحا لنا؟ بمعنى لانكون قد عملنا شيئا بتسامحنا. وبهذه المناسبة يقول المفكر الفرنسي الكبير لاروشفقو - La Rochefoucauld: »لدينا كلنا الكفاية من القوة لتحمل سؤ الاخرين« (Maximes et Réflexions). هذا أمر محتمل لكن ليس فيه شيء من التسامح. لنتذكر بهذه المناسبة مدينة سيراجيفو - Serajevo التي كانت مدينة متسامحة، إنما تركها في عام 1993م إلى الحصار والجوع والقتل لم يكن سوى جبن من أوروبا. فالتسامح يفترض الأخذ على الذات وليس على الغير، حيث لايعد هناك من تسامح، وكما أسلفنا. ولذلك فتحمل عذاب الآخرين (كما في عذاب أطفال الحجارة في فلسطين اليوم...) والظلم الذي يحيق بهم والتسامح مع الفظائع التي ترتكب بحقهم ليس فيه شيء من التسامح بل هو منتهى الجبن واللاإنسانية واللامبالاة وأكثر. فالتسامح مع هتلر وكذلك الفاشيست والصهاينة هو تعاون معهم. وهنا لايجوز الإستسلام للفظائع والأهوال. ولذلك فالتسامح العالمي بهذا المفهوم هو تسامح مع الوحشية او التسامح الوحشي32.

إنما مع كل التحفظات المتأتية عن هذه الإشكالية لا بد من التمسك بالحرية والتسامح: جوهر النظام الديمقراطي، إنما في الحدود التي لاتؤدي إلى الأنظمة التوتوليتارية، حيث تبقى الإشكالية في صعوبة تقدير الحدود. وذلك في عالم يمشي نحو العولمة بخطى سريعة في شقه المتقدم وأقل سرعة في شقه المتخلف.

هذا بالإضافة إلى ضرورة التمسك كل التمسك بالعقل، على اعتبار أن الأخذ بالعقل في الدين يعصمه من الوقوع في العصببية فالعنصرية، فيغدو في إطار التسامح وقبول الآخر، ويرقى به إلى المستوى الحضاري المقتحم للمستقبل، وكذلك الأمر في الفلسفة التي يعصمها عن الوقوع في الوثوقية والدوغماتية.

الواقع أنه بالرغم من محاولة عابد الجابري المتأثرة بالفلسفة الإسلامية وبفكرة كل مجتهد مصيب (كون من اجتهد وأصاب فله اجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد) لاعتبار التسامح يدور في إطار الفلسفة أو يدور في فلكها أو هي ميدانه بامتياز، فإن الكثير من الفلاسفة، ومنهم لالند سابقا وإدوردز لاحقا، الكثير من الفلاسفة يفضل الأخذ بعبارة »الإحترام« – Respect بدلا من تسامح – Tolérance، لكنها عادة الإستعمال، وكما سوف نرى، وذلك في اللغة العادية وحتى الفلسفية للأشارة إلى الفضيلة التي تناقض التعصب وضيق التفكير والإستبداد... باختصار اللاتسامح.

لذلك نتسأل في النهاية عما إذا كانت كلمة تسامح مناسبة لما عالجنا لاسيما وأن فيها شيئا من التسامح بتعجرف وحتى من الكره الذي يزعج. ونذكر هنا مزحة بول كلوديل -Claudel Paul الذي يقول: »ما هو التسامح؟ هناك منازل له!« (يا لهذا الإستخفاف المعروف به كلوديل– ع.ع.). فالتسامح مع آراء الآخرين أليس هو اعتبارها دونية أو مخطئة؟ فالإنسان لايتسامح إلا مع ما بمقدوره أن يمنعه: فإذا ما كانت الآراء حرّة، كما هو المفترض أن تكون، فهي لاتعود عندها للتسامح!. وفي ذلك تناقض كل التناقض. فإذا ما كانت حرية المعتقد والرأي وممارسة العبادة من الحقوق المكتسبة، فلا مجال عندها لكي يتسامح معها، بل مجرد احترامها والحفاظ عليها والقيام بها33. ولذلك ففقط »وقاحة عبادة مسيطرة« كما لاحظ كوندورسيه – Condorcet يمكن أن تقول بـ»التسامح«، أي السماح المعطى من قبل أناس لأناس آخرين«34.

وهذا أمر من المفترض أن يعتبر بالأحرى »احترام« للحرية المشتركة. بعد مائة عام من ذلك فإن قاموس لالند، الذي استشهدنا به بالنسبة لهذه الفكرة – الإحترام، يؤكد أيضا، في أوائل القرن العشرين، على العديد من التردد والتحفظ

في في الموضوع35.
لذلك فالكلمة – تسامح لاتزال موضع التباس وأخذ ورد وحتى اليوم، وعلى المستوى الفلسفي وايضا التطبيقي السياسي بشكل خاص.
وبالتالي، وكما أسلفنا، فإن التسامح هو عبارة، على العكس، أخذ بها وفرضت نفسها في اللغة العادية كما الفلسفية، لتشير إلى الفضيلة التي تقف في وجه التعصب وضيق الأفق والإستبداد..... بكلمة ضد اللاتسامح.
فهذه الكلمة – التسامح لاتزعجنا إلا لأنها – لمرة واحدة! – ليست متقدمة، وبما فيه الكفاية على ما نحن عليه. فهي »فضيلة صغرى، كما يقول جانكليفيتش، فهي تشبهنا«36. »فالتسامح ليس بالطبع المثال، كما يلاحظ آبوزيت – Abouzit، ليس الحد الأقصى بل الأدنى«37. هذا هو واقع الحال من دون شك »لكنه أفضل من لاشيء أو عكسه«38. كما نحن متفقون أن الإحترام والمحبة هما الأفضل. ولكن إذا ماتمكنت كلمة تسامح من أن تفرض نفسها، فذلك لأن كل منا يشعر بقلة مقدرته على الإحترام والمحبة، من دون شك، بالنسبة لخصومه، على اعتبار أن تجاههم يستعمل التسامح«39.
لذلك »وبانتظار اليوم السعيد الذي يصبح فيه التسامح محبة« يستنتج جنكليفيتش فيقول : »إن التسامح، مجرد النثري العادي المبتذل هو أفضل ما لدينا«. بنأ عليه فالتسامح – هذه الكلمة الممتدحة، هي الحل الوسط، باعتبارها الأفضل، أي بانتظار أن يتمكن الناس من المحبة، بانتظار ان يحبوا بعضهم بعضا، أو مجرد أن يتعاونوا ويتفاهموا. ولذلك فلنعتبر أنفسنا سعداء بأنهم بدأوا أن يتحملوا بعضهم بعضا40.
و »دون الأخذ بعين الإعتبار أنه علينا أحيانا أن نتسامح مع من لا نريد ولا نحترم ولا نحب؛ فعدم الاحترام ليس دائما غلط، وبعض الكره هو أقرب إلى الفضيلة. وقد راينا أن هناك لاتسامح يتوجب علينا مكافحته. لكن هناك أيضا ما هو متسامح معه ومع ذلك فهو مكروه وممقوت. فالتسامح يقول بكل ذلك، او على الأقل يسمح به. فهذه الفضيلة الصغيرة توافقنا. فهي بمتناول اليد، وهذا أمر غير متوفر دوما، وبعض أعدائنا، يبدو لنا، أنهم لايستحقون أكثر من

ذلك....«41.
ونضيف إلى ذلك ماورد بخصوصها (هذه الفضيلة الصغيرة) في كتاب زغلول مرسي »التسامح«، حيث يقول: »مابين العنف غير الفاعل واستحالة اللامبالاة ليس هناك سوى الحوار الحر والمسالم، والذي نسميه، لعدم وجود تسمية أفضل، التسامح.....لقد انتهىالعصر اللاهوتي وحلُ محله الآله المطلقون الدولة النسبية«42.
هذا وفي البدء، إذا ما صدقنا السلطة العصرية »فإن المطبعة هي ترسانة لايجوز أن تكون في متناول كل الناس. فنحن تجاه حالة تهم السياسة«43. ولذلك لجأت السلطة إلى المراقبة الرسمية.
وبهذه المناسبة، لقد سبق لنا أن قلنا إنً التسامح غير وارد في الدول التوتوليتارية، ومع ذلك، وكما رأينا ونرى فهومقنن في الدول الديمقراطية، وكالعادة حفاظا على النظام والمصلحة العليا للدولة وو..... .
إن حجج المراقبة العصرية هي حجج محاكم التفتيش في القرون الوسطى. تلك كانت باسم الإله الأوحد المطلق، وهذه هي باسم السلطة المطلقة الكلية العلم (إحدى صفات الله– ع.ع.). وفي ما بين المراقبتين لم يختلف القمع، سوأ أكان في طبيعته او وسائله. لقد أصبح القمع بثابة ظل الحرية الجديدة. في السابق كانت محرمة حرية الضمير، اليوم المحرمة هي حرية المحاكمة والتفكير والتعبير التي يعمل على مراقبتها..... .«44.
فيما يتعلق بردة الفعل هنا فإن طبيعة المواجهة لاتتغير: فإذا ما كان اضطهاد الضمير من دون جدوى ومنتهى الغباء، فاضطهاد التعبيبر، الذي هو من نفس الطبيعة، لايقل عنه عدم جدوى وغباء. و تعود دورات الصراع ضد النعاس والإمساك بالعقل وتعبئة العقل، مع كل ما يرافق ذلك من عنف وتطرف ونفي وإهانة الإنسان للإنسان. فنحن مجددا، رغم انتفاءالمحطبات، في وسط البربرية الجديدة.
فالواقع أن فكرة الحرية الثقافية هي موضع انقضاض عليها من موقعين متناقضين. فمن جهة هناك أعداؤها النظريون ممتدحو التوتوليتارية ومن جهة

أخرى أعداؤها المباشرون العمليون: الإحتكارات مع البيروقراطية، وذلك في الإنظمة التي تسمى ديمقراطية.

بالخلاصة فإن التسامح قد تحجر لدرجة أن أصبح مفهوما ليبراليا، وحتى في خدمة الأقليات الإقتصادية، متنكرا لمبدأ المساواة الحقيقية والثورية، فغدا في عنبر التاريخ45.

أخيرا فإذا ما قال بول كلوديل ساخرا: ما هو التسامح؟ يوجد منازل له! بالإمكان أن نضيف، ومن دون مجازفة: بعض التسامح يوجد له مقابر: القواميس أو الأفضل المختارات46.

فالتسامح، كما مر معنا، هو، ككل شيء آخر حامل للتناقض، كونه يفتقر ويتحول، إنما في النهاية هو منفتح كونه يتحرك ويتحرر، حسب الصراع الخلاق بين »البنى الإقتصادية والسياسة من جهة والنظرية والتطبيق من جهة أخرى«47.

وهنا فالتغيير، مهما كان قليلا (هو أمر حتمي لابد منه للتناقض) سيكون مناطا بالتسامح الجديد، الذي عليه أن يبحث دوما على أكثر من العدالة والحق، في إطار جهد لانظير له من الإعتراف المتبادل والتماسك الحقيقي، وحيث الإله »الذهب« يجب أن يدمَّر، مثلما دمرت الأصنام القديمة. عندها فقط يبقى على البشرية ان لاتضع على وجهها قناع التسامح.

****

1- Denis Diderot, France, Tolérance dans l'encyclopédie,1965 ,La Tolérance, essai d anthologie, textes réunis et présentés par Zagloul Morsy, agrégé de l'université, professeur à la faculté des lettres de Rabat, Editions Arabes 1975, Unesco 1974, Imprimerie Catholique, Beyrouth, Liban 1975, p.64-65.

civile, Actes du colloque de La Tolérance -2
Mons publies par Roland Grahay, Etudes
siècle, Editions de l'Université de sur le 18
,Bruxelles, Editions de l'Université de Mons
Avant-propos par Robert Joly, p.15 ,1982

civile, Robert Joly, Avant- La Tolérance -3
.propos, p.16

4-هذا القول لفولتير وهو منقول عن:مجموعة من الؤلفين، من أديب إسحاق
والأفغاني...إلى ناصيف نصار، أضواء على التعصب، حسن حنفي،
تعصب/تسامح (1986)، دار أمواج، ط1، بيروت 1993، ص 176.

5-المرجع السابق نفسه: أضواء على التعصب، حسن حنفي، تعصب/
تسامح،ص.177

6-المرجع السابق نفسه ص 177

7-المرجع السابق نفسه ص 178

8-المرجع السابق نفسه ص 178

9-أديب إسحاق، نقلا عن ناصيف نصار، نقد التعصب ص 203

Grand dictionnaire encyclopedique -10
Librairie ,Larousse (G.D.E.L.) V.10
Larousse, 1985, p.10275

J. Leclerc, Histoire de la tolérance au -11
siècle de la reforme, deux volumes, Aulumir,
la ,Théologie n 3,1955: Roland Grahay
tolérance, Robert Joly, avant-propos, p.18

et critique Lalande André, Vocabulaire -12
de la philosophie, Librairie Felix Alcan, Paris
1926, p. 1133

13- أضواء على التسامح، حسن حنفي، تعصب / تسامح ص 179

14- تمستيوس(بافلوفونيا317 – القسطنطينية 388)
Themstios، وهو فيلسوف يوناني ومدير جامعة القسطنطينية وصديق جوليان المرتد ومربي اركاديوس. لقد لعب دورا سياسيا كبيرا؛ فكان على التوالي شيخا ثم حاكم. وهو مؤلف كتاب عن ارسطو.

Le Petit Robert des noms propres, nouvelle) édition, refondue et augmentée, rédaction (1999 dirigée par Alain Rey, Paris

15- أضوء على التسامح، حسن حنفي، تعصب / تسامح ص 179.

16- كونستنتان (274 – 337)Constantin ، وهو قسطنتين الأول الملقب بالكبير. ولد في نينسوس عام 274، أصبح إمبراطورا في العام 306 وتوفي في العام 313. انتصاره على "مكسانس" عند أبواب روما في العام 312 حسم نهائيا الإعتراف بالمسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية. وفي العام 313 فإن براءة ميلانو تعلن حرية الدين. اعتنق هو نفسه المسيحية في العام 323، فنقل مركز الإمبراطورية إلى بيزنطة التي غدت القسطنطينية (نقلا عن ألبير باية، تاريخ الفكر الحر، ترجمة وتعليق د. عاطف علبي، معهد الإنماء العربي، بيروت 1996، الحواشي ص 62).

17- La Lande, p. 1133

18- Ibiden, p. 1133

19- Ibiden, p. 1133

20- بوسيه جاك بنين (ديجون- 1627- باريس 1704) Bossuet Jacques Bénigne. وهو رجل دين وكاتب فرنسي. سيم كاهنا في عام 1652 وأصبح مفوضا كنسيا لمدينة "متز" Metz حتى العام 1658. توجه نحو التبشير باهتمامات القديس سان فنسان دي بول الذي آذر بعثاته الشعبية. كان يرسل غالبا إلى باريس حيث اشتهر بمواعظه ومراثيه عندما أصبح مطرانا لمدينة "كوندوم" Condom. في عام 1669 أضاف إلى نشاطه الكنسي مهمة مربي ولي العهد الكبير (1670- 1680) حيث غدا مؤرخا

وفيلسوفا، لاسيما في محاضراته حول التاريخ العالمي(1681) وحيث حاول القيام بخلاصة للنظام الإلهي والنشاط البشري. عندما عين مطرانا لمدينة "موو" Meaux (1861) قام بهمة بمحاربة البروتستانت(هجأه غوديو وجان كلود). هذا وكقائد حقيقي لكنيسة فرنسا دبج إعلان الإكليروس الفرنسي (1682) بناء لطلب لويس الرابع عشر، حيث وفق بين السلطة البابوية والحريات الغاليكانية. في المناظرات مع البروتستانت لم يكن حياديا. فيما بعد تلى مراسلاته مع الفيلسوف "ليبنتز" حول توحيد الكنائس(1693 – 1696) معركته من أجل الطمأنينة(مذهب صوفي يرى أن الكمال يقوم على حب الله وسكون الروح) التي وضعته وجها لوجه مع "فينيلون" Fénélon. وفي وسط صراعه ضد "ريشارد سيمون"، فيما يتعلق بالكتابات الدينية توفي. لقد كان صوفيا شغوفا بالبحث عن نظام ذي معنى يسمح بالتوافق بين الضرورة الدينية والضرورة العقلانية(وهذا يذكرنا بمحاولة الفلاسفة المسلمين التوفيق بين الشريعة والفلسفة– ع.ع.). إنه لذكاء يقود إلى الإيمان. لقد كان أمينا للأرتوذكسية في عمله الإكليركي والأخلاقي والسياسي. فقد كان مقتنعا بأن الميزان صحيح وأن التوازن كامل في النظام العالمي، وأن الأسباب الثانوية التاريخية تخضع للقدر الإلهي. لقد ربط بذلك أسرار السياسة وتصرف الحكومات بامثلة الكتاب المقدس. اعتبر الملوك مسؤولين أمام الله. والعدالة فقط و واجبها الأول الإحسان يمكن أن يبرر نجاحات الكبار في هذا العالم وهم مكلفون بتجسيد القيم الأخلاقية للمسيحية.

(Petit Robert des noms propres Le)

21- La Lande P. 1135

22- Tolérance, Avant Zaghloul Morsy, la propos

23- "ميرابو" (1749 -1791) Mirabeau (Honoré Riqueti, Comtede Gabriel) و هو سياسي فرنسي وخطيب مفوه. لقد كان بشعا ولكن ذكيا للغاية و ذو طبع عنيف. كتب العديد من

المقالات ليفضح الحكم المطلق والرسائل المختومة وسجون الدولة والإمتيازات وسؤ استعمال السلطة. شارك في الإنتخابات للجمعية العمومية فلفظه النبلأ بالرغم من كونه نبيلا، لكن الطبقة الوسطى لمدينة "آراكس" تبنته. كان ألمع خطيب في الجمعية التأسيسية، فلعب لذلك دورا مقررا في اوائل الثورة، حيث في شهر أيار 1789 أعلن حرية الصحافة ودافع عن مبادىء الثورة وشارك في كتابة "إعلان حقوق الإنسان والمواطن" . كما اقترح أن توضع أملاك الإكليروس بتصرف الأمة. طموحه وذكاؤه جعله يحاول أن يلعب دور الوسيط بين الملك والجمعية العمومية. مع الوقت تخلى شيئا فشيئا عن الوطنيين ليدافع عن المطالب والحقوق الملكية، إنما مع بقائه مدافعا من وقت لأخر عن المبادىء الثورية. بالرغم من اتهامه بالخيانة من قبل بعض النواب تمكن من الحفاظ على شعبية نظيفة لدرجة أن انتخب رئيسا للجمعية العمومية عندما وافته المنية فجأة (Le Petit Robert des noms propres)

24- دنيس ديدرو (لانفر 1713- باريس 1784). وهو كاتب وفيلسوف فرنسي ينتمي إلى البورجوازية المنعمة. بعد حياة بوهيمية كرس نفسه وحياته للإنسيكلوبيديا، التي أشرف عليها وأدارها منذ العام 1747 حتى العام 1766. كان يرغب حسب تعبيبر غوته في إثارة العقل. ومن التأليهية (philosophiques Pensées) انتقل إلى المادية الملحدة Lettres sur les aveugles à l’usage de ceux qui ne voient pas) إنما غير الميكانيكية لهلفتيوس وكان من أنصار أخلاق الطبيعة وحرية الإنسان. وكانت الطبيعة بالنسبة إليه بمثابة قوة إلهية. ويعتبر من الممهدين للثورة الفرنسية(نقلا عن تاريخ الفكر الحر، ترجمة وتعليق د. عاطف علبي، معهد الإنماء العربي، بيروت 1996، من حواشي الفصل السابع.

25- The Encyclopedia of Philosophy, V. 7 Paul EDWARDS, P.143.

26- la tolérance, André Comte-Sponville,

p.220-222, Petit traité des grandes vertus,
.N.ed., Paris 1995 ,.Delta Beyrouth, P.U.F

Spinoza, traité théologico-politique, chp. -27

.Apphus, rééd. G.F. 1953, p.350 .20 de l'éd

.Andre Comte-Sponville, la tolérance, p -28

.229

V Jankelevitch, traite des vertus, 2 p.92, -29

.1966 ,de l'éd. Champ-Flamarion

Karl Popper, la société ouverte et ses -30

Seuil, 1929, t.1,n 4 du ,.ennemis, trad. Franc

.chp.7, p.222

André Comte-Sponville, la tolérance -31

.p.212

.Ibiden p.212-213 -32

.Ibiden p.225-226 -33

Esquisse d'un tableau ,Condorcet -34

historique du progrès de l'esprit humain, 8,
.l'éd. Prior, Vrim 1970 p.129 de

,André Comte-Sponville, la tolérance -35

.p.226

.Op. cit. p.86 et 94 de Jankelevitch -36

discussion de la F. Abouzit, dans la -37

société française de philosophie,
Même idée ,Vocabulaire Lalande p. 1134

.chez Jankelevitch, op. cit. p.87

tolérance p. André Comte-Sponville, la -38

.227

.Ibiden, p.227 -39

.Jankelevitch Op. cit. p.101-102 de -40

André Comte-Sponville, la tolérance -41
.p.228

Morsy, la tolérance p.228 Zaghloul -42

.Ibiden, p.235 -43

Zaghloul نقلا عن ,Johan Nestroy, Autriche -44
Morsy, la tolérance p. 183

.p. 234 Zghloul Morsy, la tolérance -45

.Ibiden, p.234 -46

.Ibiden, p.234- 235 -47